مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية.

المجلد 08 / العـدد: 01 افريل (2024)، ص ص146-156

صورة الآخر في أدب الرّحلة

رحلة ابن فضلان إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّقالبة أنموذجا

The image of the other in travel literature

Ibn Fadlan's journey to the countries of the Turks, the Khazars, the Russians, and the Saqlabas as a model

د. هناء داود*

جامعة 8ماي 1945 قالمة (الجزائر)

hanadaoud0@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023./06./07 تاريخ القبول: .2024./03./10

● **الملخص:**

تقوم الرّحلة على الحركة والتنقل من مكان إلى مكان، فصاحبها لا يستقرّ بل يزور الأمكنة المتعدّدة ويجوب الأراضي الواسعة، والبلدان المختلفة، هذا ما يتيح له فرصة اكتشافها، والتّعرف عليها، والاطّلاع على ثقافاتها، وديانتها، وأساليب حياتها، والتّواصل مع شعوبها، ولا يكتفي الرحّالة بالمشاهدة والاستكشاف بل يسجّل ويؤرّخ كلّ صغيرة وكبيرة يكتشفها في البلدان الّتي يزورها بأسلوب منمق ولغة راقية، ليكون نصّه الرّحليّ نصّا أدبيّا شاهدا على رحلاته ومجسّدا لها، ومرجعا للأجيال المتعاقبة.

ودون شكّ أنّ الرّحلة مليئة بالحديث عن الآخر وتصويره، وهذا يجعل نصّ الرّحلة مجالا خصبا لدراسة هذا الآخر انطلاقا من وصف الرحّالة له، من هنا تأتي دراستنا لتسلّط الضّوء على واحدة من الرّحلات الثرية، بالحديث عن مختلف الشّعوب من مختلف جوانبها الاجتماعيّة، والثّقافية، والسّياسية وهي رحلة (ابن فضلان) لِنستجلي من خلالها صور الآخر المتعدّدة، ونظرة الرحّالة إليه، ونبحث في دلالاتها، ونستظهر مضمراتها، اعتمادا على التّحليل، الثّقافي.

كلمات مفتاحية: صورة، الآخر، رحلة، ابن فضلان، التحليل الثقافي.

Abstract:

The trip is based on movement and movement from one place to another, as its owner does not settle, but rather visits multiple places, roams wide lands, and different countries. The traveler watches and explores. Rather, he records and chronicles every small and big thing he discovers in the countries he visits in a stylized manner and in a refined language, so that his travel text is a literary text that bears witness to his travels and embodies them, and a reference for successive generations.

Undoubtedly, the trip is full of talking about the other and depicting it, and this makes the text of the trip a fertile field for studying this other, based on the traveler's description of him. (Ibn Fadlan) to reveal through it the multiple images of the Other, and the look of the traveler at him, and to search its connotations, and to reveal its implications, depending on the cultural analysis.

Keywords: image, other, journey, Ibn Fadlan, Cultural analysis.

* هناء داود

- **مقدمة:**

يعدّ الأدب ثروة تحوي جميع مظاهر الحياة الإنسانيّة بمختلف مجالاتها، وجوانبها، فهو مجال واسع لا يركن عند حدّ معيّن بل يخوض في موضوعات متعدّدة، وقضايا لا حصر لها، هذا ما جعله يكتسب أهميّة وقيمة بين مختلف المجالات المعرفية الأخرى، ويتأتّى الاهتمام بالأدب من مدى ثراء مادّته، ومدى تعبيرها على الواقع، والحياة الإنسانيّة، ومشاعر الأفراد، فهو بهذه الأهمية يعدّ سجلا يؤرّخ ثقافات الشّعوب، وطريقة حياتهم، ويصوّرها بالكلمات المعبّرة والصّادقة.

ونظرا لتعدّد أنواع الأدب فإنّ ذلك يصبغه بطابع التنوع الّذي يخلق صورًا جديدة، ويعبّر على الموضوعات بأساليب متنوعة، فليس الشّعر كالقصّة، وليست المسرحية كالرّواية، فكل من هذه الأنواع يختلف عن الآخر من حيث الأساليب التّعبيرية والتقنيات الفنّية المعتمدة لكتابة نوع أبيّ معيّن.

ولا يختلف أدب الرّحلة عن الأنواع السّابقة من حيث اهتمامه بالقضايا الإنسانية، وحياة الشّعوب؛ إذ نجده زاخرا بالحديث عن المجموعات البشرية عبر العالم، فلا يترك الرحّالة مجالا من مجالات الحياة إلاّ ويتطرق إليها واصفا إيّاها، ومصوّرا لكل دقائقها، وكاشفا عن كلّ خصوصياتها، معتمدا أسلوب السّرد الّذي يتيح له مساحة تعبيريّة واسعة تسمح له بنقل تجاربه، واكتشافاته، وكلّ ما شاهده وعاشه أثناء رحلته، مبتعدا بذلك عن الأساليب المبتذلة، واللّغة الركيكة، ومعتمدا الأسلوب الأدبي الرّفيع الّذي يرقى بمستوى النصّ الرّحلي باعتباره نصّا أدبيّا، وعليه فأدب الرّحلة في أبسط تعريفاته هو «الرّحلة الّتي يقوم بها رحّال إلى بلد من بلاد العالم، ويدوّن وصفا لها يسجّل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصّدق وجمال الأسلوب»[1]، الّتي تكشف عن قدرة إبداعيّة للرحّالة الّذي ينقل تجارب رحلته بأسلوب إبداعيّ رفيع.

فالرّحلة بذلك هي نصّ متشعّب يطرح مواضيع كثيرة، وقضايا متنوعة في قالب أدبيّ، ويعدّ موضوع الآخر من أبرز المواضيع الّتي نالت حظّها الأوفر في متون النصوص الأدبيّة الرّحلية العربية على وجه التّحديد، فطالما شدّ الآخر انتباه الرحّالة الّذي لا يتوانى على تصويره تصويرا دقيقا يلمّ بجميع جوانبه، والنصّ الأدبي الرّحلي بهذا الثّراء والتنوع الموضوعيّ والفنّي يجعله نصّا مليئا بالدّلالات والإيحاءات، والأبعاد المتنوعة الّتي تحتاج إلى التّأمل لاستجلائها.

ومن هذا المنطلق تحاول دراستنا الإجابة على إشكالية مهمة هي: كيف تجلّت صورة الآخر في رحلة (**ابن فضلان إلى بلاد الترك والخزر والرّوس والصقالبة**)؟ وماهي الجوانب المستهدفة من قِبل الرحّالة لتصوير هذا الآخر؟ وماهي نظرة الرحّالة للآخر المختلف دينيا وثقافيا واجتماعيا؟

ونبتغي من وراء هذه التّساؤلات تحقيق جملة من الأهداف أهمها:

-استجلاء صورة الآخر من متن الرّحلة.

[1]- عبد الرازق ناصر المواق، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، مصر، ط1، 1995، ص38.

-الوقوف على كيفية نقل هذه الصّورة، والأساليب المنتهجَة لذلك.

-رصد مختلف الرّؤى والدّلالات الّتي ساهمت في تشكيل صورة الآخر لدى الرحالة، والموقف المتّخذ من هذه الصّورة.

-استظهار مختلف الممارسات الدّينية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية الّتي كان لها الأثر البالغ في تكوين صورة الآخر المعبّر عنه في النصّ الرّحليّ.

وللإجابة على التّساؤلات المطروحة، والأهداف المراد تحقيقها في هذه الدّراسة سننتهج التّحليل الثّقافي.

1. أدب الرّحلة والتّعرف على الآخر:

تقوم الرّحلة على الانتقال من مكان إلى آخر، فالرحّالة لا يمكث في مكان واحد بل يتنقل بين البلدان، ويزور الأماكن المختلفة، ويتعرّف على الشّعوب والأجناس البشرية، وهذا التنقل يتيح له فرصة التّعرف على هذه الشّعوب وعاداتها وتقاليدها، وممارساتها الثّقافية، وشكلها الخارجي، وأهمّ ما يميّز شخصية الرحالة أنّه لا يكتفي بالمشاهدة فقط بل يدوّن كلّ ما يراه مراعيا الدقة في التّصوير، كما أنّه لا ينظر إلى ما يشيع في المكان الّذي ارتحل إليه نظرة سطحية بل ينظر نظرة المستكشف، والمنتقد، والباحث عن الظّاهر والمضمر.

والرّحلة بهذا التصور تعدّ «إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة وإسقاط الفاصل المعيّن بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معيّن، ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان، وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر »[1]، فتجاوز حدود المكان نحو أمكنة أخرى يفتح المجال واسعا أمام الرحالة للانفتاح على الآخر واكتشافه.

فالرّحلة إذن تقوم على الحركة، والرحّالة يقوم بـــــــ «مخالطة الناس والأقوام، وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنســانية، ولرصــد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة، لذا كان للرحلات قيمة تعليمية من حيث إنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين»[2]، نظرًا لدقة التّصوير الّتي يعبّر بها الرحالة على الآخر ، بحيث يجعل قارئ النصّ يتمثّل مختلف الصـور الّتي قدّمها الرحّالة في نصّه الرّحلي، ويعيش الوقائع الّتي نقلها، لذلك فالنصّ الأدبي الرّحلي وثيقة مهمة جدّا في نقل أخبار الشّعوب والبلدان، ولا يمكن إغفال هذه الأهمية الّتي تمتاز بها الرحلة.

وتُضــاف إلى هذه الأهمية أهمية أخرى تتمثّل في ثراء مادّة النصّ الرّحلي بمختلف العلوم والمعارف؛ ذلك أنّ «ثمار الرّحلة لا تتوقف عند التّعارف أو صـقل الشّـخصيّة أو كشـف المجهول من طبائع الشّعوب، لكنها تجود بالمكاسب العلمية والأدبية التي قد يتعذر حصرها خاصــة إذا كان الرحّالة متمتعا بقوّة الملاحظة وشــهوة التّطلع ويقظة الحواس، وحب المحاورة، والرّغبة في التّحصــيل والحرص على التدوين والتّسـجيل»[3]، وهذا ما يُفترض أن يتوفر في شـخصـية الرحالة ليتمكّن من تقديم الإضـافة العلمية والمعرفية لنصّـه، كما يجعل القارئ يطّلع على جوانب متنوعة، ما يضـفي على الرحلة نوعا من التشـويق، والثّراء، لا سـيّما أنّ مادّة الرحلة تُكتب بأسـاليب تتنوع بين الأسـلوب القصصي، والحوار، والوصف.

---

[1]-المرجع السابق، ص24، 25.

[2]-حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، الكويت، د.ط، 1978، ص15.

[3]-فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002، ص22.

وعليه فإنّ النصّ الأدبي الرّحلي بهذه المواصـــفات يجعل القارئ يعيش وقائع الرّحلة، ويجوب مختلف البلدان، ويتعرّف على الآخر البعيد عنه، الّذي له مميزاته الشّـكلية، وظروف معيشـته الخاصـة به بحكم البعد الجغرافي، وتبدّل مظاهر الحياة الإنسـانيّة من منطقة إلى أخرى، والآخر هنا «في أكثر معانيه شيوعًا يعني شخصا آخر أو مجموعة مغايرة من البشر ذات هوية موحّدة، وبالمقارنة مع ذاك الشخص أو المجموعة أسـتطيع أو نسـتطيع تحديد اختلافي أو اختلافنا عنها»[1]، أي أنّ الآخر هو المختلف في الدّين والانتماء، والجنس، ولكي لا نحصر مفهوم الآخر في هذا النطاق يمكن القول إنّ «الفرد يمكن أن يكون آخر حتى بالنسبة إلى نفسه قبل مدّة قصيرة، ويمكن أن يتحوّل إلى آخر بعد مدّة قصيرة أيضا، وكل شخص هو آخر بالنسبة لأيّ شخص على وجه الأرض»[2]، وطبيعي أن يختلفا في أمور عدّة، وهذا الاختلاف بين الأنا والآخر يولّد لدى كل منهما الرغبة في اكتشاف بعضهما، وتبادل المعارف والثّقافات.

ولا غرو أنّ هذا الاختلاف يجعل الأنا يكوّن صـورة عن الآخر، وفي المقابل يرسـم الآخر صـورة عن الأنا أيضـا، والصّـورة في هذا المقام يُقصـــد بها جملة الرؤى والتّصـــورات الّتي تكوّنت لدى الرحالة أثناء احتكاكه بالشّـــعوب الّتي زارها؛ أي وصـــفها، والوقوف على أســـلوب حياتها، ويتعدّى ذلك إلى قراءة هذا الآخر من منظور الأنا، هذا ما يجعل النصّ الرّحليّ «يحمل في طياته رؤية وخطاب يعكس آراء الأنا الّتي توجد بمعزل عن الآخر، فيقوم الرحالة بتأويل العالم والتّاريخ والذّات إلى جانب الآخر، الّذي هو أفكار وقيّم وعادات وثقافة، ويتمظهر الآخر في صـــورة عند الرّاوي قبل انطلاق الرّحلة من خلال السّـــماع، وهي صـــورة احتماليّة تترســـخ عن طريق الحكي والقراءات في كتب التّاريخ والجغرافيا، وصـورة بعديّة إمّا ترسّـخ الاعتقاد أو تنفيه، وهي تقوم على المقارنة بالأنا»[3]، لأنّ الرّحالة هنا يكون في موضع المشاهد الّذي يتطلع إلى اكتشاف الأوطان، والشّعوب، وعاداتها، وتقاليدها لتتكوّن لديه رؤية واضحة يصوغها في قالب أدبيّ يصـــوّر كلّ هذه المشـــاهدات، ومن ثمّ تتحوّل إلى مرجع يحوي مادّة تاريخيّة أدبيّة تصـــوّر تاريخ البلدان، وتنقل طرق حياتهم، وأســـاليب عيشهم.

تعدّ الرّحلة وسيلة الرحّالة الّتي تحقّق له غايات عديدة، أهمها تأليف النصّ الرّحليّ الّذي يوثّق ويحفظ معلومات ومعارف ثريّة تخصّ البلدان الّتي زارها، من هنا يعدّ النصّ الرحليّ مرجعًا ثريًا تتعاقبه الأجيال جيلا بعد جيل، تتعرف من خلاله على ما كان ســـائدا، والتّطورات الّتي شـهدتها البلدان على مرّ العصـور، ورحلة **(ابن فضـلان إلى بلاد الترك والخزر والروس والصـقالبة)** من النّماذج الرّحلية الثّرية بالمادّة المعرفيّة الّتي مسّت جميع جوانب الحياة الإنسانيّة الثّقافيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والدّينيّة، والعقائديّة؛ فهي «تصف بلاد الروس والبلغار والأتراك في القرن العاشـر للميلاد وصـفا لا يكاد يقع إلاّ في هذا المصـدر، والرّوس أنفسـهم عادوا إليه وقرؤوه، ودرسـوه، ونشروا منه، وترجموه منذ مئة عام، وجعلوه في مصادرهم الثّمينة كمرجع أساسي لا غنى عنه، ليزدادوا به فهما ومعرفة، ففيه أسماء وأعلام، وفيه ألبسة وأطعمة، وعادات وتقاليد، تتكشّف رموزها وإشاراتها عن أشياء جديدة»[4]، والرّحلة ثريّة جدّا تتضمن معارف متنوعة، تُكسب

---

[1]- ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002، ص23.

[2]-صلاح صالح، سرد الآخر؛ الأنا والآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربيالدار البيضاء، ط1، 2003، ص10.

[3]-حشلافي لخضر، روباش جميلة، الآخر في الرّحلات المغربيّة، مجلة آفاق، جامعة الجلفة، ع: 8، ج: 1، 2017، ص2.

[4]- أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد، رسالة ابن فضلان، في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ-921م، تح: سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1959، ص7، 8.

كلّ مطلع عليها زادا معرفيا وعبرا، وثقافة، كونها تعبر وتصـــف، وتصـــوّر حال البلدان بواقعيّة وحقيقة بعيدا عن كلّ خيال ووهم؛ لأنّ الرحّالة عايش، وشاهد، ودوّن كلَّ ما رآه آنذاك.

بناء على هذا سـنقف في دراسـتنا هذه على رحلة (**ابن فضـلان إلى بلاد الترك والخزر والروس والصـقالبة**) لنسـتجلي صـورة الآخر، وما تتضـمنه الرّحلة من موضـوعات وجوانب معبّرة، لا سيّما أنّها من النّصـوص الرحليّة الّتي جمع فيها صـاحبها كلّ ما شـاهده في رحلته الّتي انطلقت من بغداد نحو مناطق متعدّدة، فتضـمنّت الحديث عن شعوب وقبائل متنوعة، ناقلا من خلالها طريقة حياتهم العلمية، والاجتماعية، والثقافية، والسّياسية، والدّينيّة.

2. صورة الآخر في "رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والخزر والرّوس والصقالبة":

يذكر (ابن فضلان) في نصّه الرّحليّ الكثير من التفاصيل الّتي تسلّط الضّوء على شعوب الأتراك، والروس، والصقالبة، والخزر فأطلعنا في رحلته على جملة من جوانب الحياة هناك بطريقة تجعل القارئ يعايش هذه الحياة، ويكتشف طريقة تفكير الشّعوب الأخرى، معتمدا أساليب السّرد، والوصف، والحوار للتّعبير .

ولم يركّز ابن فضلان أثناء نقل تفاصيل رحلته على جانب دون آخر، بل عمد إلى الحديث عن جوانب متعدّدة تخصّ هذه الشّعوب كطريقة اللّباس والأكل، وأمور الحكم، وطريقة الكلام، وتقاليد الزّواج، والمعتقدات الدينية، وطقوس الموت والجنازات، وغيرها من العجائب الّتي شدّت انتباهه، وأثارت فضوله، ولا يكتفي بمجرّد الوصف بل يبدي رأيه ويُظهر استغرابه من بعض الممارسات الّتي تقوم بها الشّعوب في هذه المناطق، وبتعدّد الجوانب الّتي تطرق إليها الرحّالة في رحلته تعدّدت الصور التي تكوّنت عن هذا الآخر المختلف، وفيما يلي نستعرض أهمها.

1.2. الآخر وأمور الحكم (صورة الحاكِم):

لكل دولة نظامها السّياسي الّذي يضع قوانينها، وينظّم أمورها وتختلف أنظمة الحكم من منطقة إلى أخرى، وهذا ما وقف عليه **ابن فضلان** الّذي نقل صورة الحاكم في البلاد الّتي زارها وطريقه تعامله مع شعبه، وسياسته في الحكم، فيذكر عن ملك الخزر بأنّه «لا يظهر إلاّ في كلّ أربعة أشهر متنزها، ويقال له خاقان الكبير، ويقال لخليفته خاقان به، وهو الّذي يقود الجيوش ويسوسها، ويدبّر أمر المملكة ويقوم بها ويظهر ويغزو، وله تذعن الملوك الّذين يصاقبونه [صاقب: قارب ودنا]، ويدخل في كلّ يوم إلى خاقان الأكبر متواضعًا (...) ولا يدخل عليه إلاّ حافيا»[1]، ويستطرد الرحّالة في ذكر حال الملك الأكبر كقوله بأنّه «لا يجلس للنّاس ولا يكلمهم، ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا»[2]، وأمّا عن زواجه فلابد أن تكون له «خمس وعشرون امرأة، كل امرأة منهنّ ابنة ملك من الملوك الّذين يحاذونه يأخذها طوعا أو كرها»[3]، هذا بالإضافة إلى جلب عدد كبير من الجواري.

---

[1]- الرّحلة، ص169، 170.

[2]-الرّحلة، ص170.

[3]-الرّحلة، ص171.

والمِلك بهذه الصّورة يفرض سلطتَه على الجميع ما يدلّ على أنّ المِلك في هذه المنطقة يبدو متسلّطًا صارمًا، ويضع نفسه في درجة عالية لا يدنو إليها أحد حتى رعيته بل يوكّل خليفة للقيام بمهامه، وهذا ما يشكّل صورة عنه في ذهن القارئ لا تخرج عن صورة الاستعلاء، والتكبر، والغرور النّاتج عن اعتلائه المنصب.

وعلى النّقيض من هذه الصّورة تميّز ملك الصّقالبة بـ حسن المعاملة، وكرمه، ونبله، وترحيبه بالضّيوف، وهذا ما لاقاه منه **ابن فضلان** ومن معه فصوّر فرح المِلك بقدومه: «فلمّا كنّا من ملك الصّقالبة وهو الّذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة، وجّه لاستقبالنا الملوكَ الأربعة الّذين تحت يده وإخوته، وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللّحم (...) فلمّا صرنا منه تلقّانا هو بنفسه، فلمّا رآنا نزل فخرّ ساجدا شكرا لله –جلّ وعزّ– وكان في كمّه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قبابا فنزلناها»[1]، وهذه المعاملة نالت إعجاب الرحّالة ورفعت مكانة المِلك لديه، لِما رآه فيه من سموّ أخلاق، واحترام للآخر، وتواضع، فقدّمه كنموذج للحاكم العادل الّذي لا يُظلم عنده أحد، وقد جسّدت هذه الصّورة الّتي رسمها الرحّالة للملك صور الانفتاح على الآخر، وتقبله، والاحتفاء به، فقدّمت بذلك موقفا راقيا للتعامل الإنساني في أسمى معانيه.

ويذكر في مقام آخر حال مِلك الرّوس الّذي من شروطه أن «يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثّقة عنده، فهم يموتون بموته، ويُقتلون من دونه، ومع كلّ واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه(...) وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره، وسريره عظيم مرصّع بنفيس الجوهر»[2]، فهو يعيش في ثراء فاحش، ومهمته إصدار الأوامر فقط؛ إذ إنّه «لا ينزل عن سريره... وإذا أراد الركوب قدموا دابته إلى السّرير فركبها منه، وإذا أراد النّزول قدّم دابته حتى يكون نزوله عليه، وله خليفة يسوس الجيوش، ويواقع الأعداء، ويخلفه في رعيته»[3]، وهي صورة للحاكم الكسول الّذي لا يغادر سريره، ولا يقوم بأيّ عمل ينفع رعيته همّه الوحيد راحته، ودون شكّ أنّ الرّعية لا تحتاج إلى مثل هذا الحاكم الّذي لا يسمع لأحوالها، ولا يحلّ مشاكلها، فهما في انفصال تامّ حيث لا مجال للحوار بينهما، لأنّ الحاكم أرفع مكانة، ونظرته للرعية نظرة دونية، فقدّم بذلك صورة الحاكم السّلبي الّذي لا يستحقّ منصب الحكم.

ومن خلال هذا التّقديم الّذي ذكره **ابن فضلان** عن الملوك الّذين حكموا مختلف البلدان الّتي زارها يتبيّن مدى عنايته بمعرفة أمر الحاكم، وطريقة حكمه، وأسلوب معاملته مع رعيته، فنستنبط صورًا متعدّدة للحكّام تباينت بين السّلبية والإيجابية، فمن الحكّام من يستغلّ منصبه لتحقيق راحته، ومنهم من يعمل جاهدا للارتقاء بدولته، وخدمة الرّعية، ولم تأت هذه المعلومات اعتباطا بل جاءت بناء على احتكاك الرحّالة بهؤلاء الحكّام والاطّلاع على أمورهم، واستكشاف خبايا الحكم، فنقل لنا كلّ ما اكتشفه مسلّطا الضّوء على نظام الحكم لدى حاكم كلّ منطقة، ووقف على طريقة سير الحكم، وجاء هذا الاهتمام بهذا الجانب لأنّه يعدّ من أهم الجوانب الّتي تؤثّر في حياة الدول والشّعوب.

2.2.الآخر وطقوس الموت:

---

[1]–الرّحلة، ص113

[2]–الرّحلة، ص165.

[3]–الرّحلة، ص166.

لا يكاد يخلو نصّ أدبي من طرح موضوع الموت باعتباره حتمية لابد منها، فكل إنسان على وجه الأرض نهايته الموت، ويعدّ «موضوعا بارزًا جدًّا يشكّل قطبا تدور عليه رحى الفكر والفنّ (...) في جميع الثّقافات الإنسانيّة (...) وممّا هو معلوم أنّ الموت عجيبة العجائب وأنّه المصدر الأساسي للرّعب البشريّ الأكبر والباعث الأول للقلق النّفسيّ الوجوديّ الّذي عانى منه الإنسان ولا يزال في كلّ زمان ومكان»[1]، فهو مصير كلّ إنسان مهما كان دينه، وثقافته، وبلده.

وإن كانت فكرة الموت واحدة لدى جميع الشّعوب، فإنّ طقوسه تختلف من شعب إلى آخر، حيث نجد العديد من الممارسات الّتي تُقام أثناء موت شخص ما، سواء ما تعلّق بالدّفن أو ما يسبق هذه العملية، وقد وقف **ابن فضلان** على بعض هذه الممارسات لدى الشّعوب الّتي زارها ونقل كلّ ما تقوم به إذا مات منهم شخص، من ذلك ما ذكره عن شعب الخزر الّذين يعاملون ملكهم الأكبر معاملة خاصّة تبعث على الاستغراب، حيث إنّه إذا مات هذا الملِك «بُني له دار كبيرة فيها عشرون بيتا، ويُحفر له في كل بيت منها قبر (...) تحت الدار نهر (...) ويجعلون القبر فوق ذلك النهر، ويقولون "حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود" (...) وإذا دُفن ضُربت أعناق الّذين يدفنونه حتى لا يدري أين قبره»[2]، ويُقال أنّه في الجنّة، وهو ما يدلّ على صورة التّعظيم والتّقديس الّتي يحظى بها الملك الأكبر لدى شعبه، ويدلّ أيضا على جهلهم، وتفكيرهم اللاّمنطقي والخاطئ إزاء فكرة الموت.

وفي قبيلة الأتراك المسماة بالغزية لا يختلف الأمر كثيرا؛ حيث «إذا مات الرجل منهم حفروا له حفيرة كبيرة كهيئة البيت وعمدوا إليه فألبسوه قرطقه ومنطقته وقوسه، وجعلوا في يده قدحا من خشب فيه نبيذ، وجاءوا بكل ماله فجعلوه معه في ذلك البيت»[3]، لاعتقادهم أنّ الميّت يحتاج ذلك بعد موته، وهذه المعاملة الخاصّة الّتي يحظى بها الميّت تدلّ على مكانته الرّفيعة، ونظرتهم له نظرة رفعة وسموّ.

وعند الرّوس لا يُعامل الجميع المعاملة نفسها فإذا مات ميّت «أحرقوه، فإن كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير»[4]، فهم بذلك يفرّقون بين المملوك الّذي يُنظر إليه نظرة دونية، والشّخص العادي الّذي يُحرَق وهم بذلك يعتقدون أنّه نال جزاء حسنًا بإحراق جثّته.

وعند الصّقالبة إذا مات «المسلم عندهم (...) غسلوه غسل المسلمين ثمّ حملوه على عجلة تجرّه، حتى يصيروا به إلى المكان الّذي يدفنونه فيه، فإذا صار إليه أخذوه عن العجلة، وجعلوه على الأرض، ثمّ خطّوا حوله خطّا، ثمّ حفروا داخل ذلك الخطّ قبره، ودفنوه»[5]، وما يثير الاستغراب هنا هو طريقة حزنهم على ميّتهم حيث «لا تبكي النساء على الميّت بل الرجال منهم يبكون عليه يجيئون في اليوم الّذي مات

---

[1]-محمد عبد السلام، الموت في الشّعر العربيّ، تر: مبروك المناعي، وزارة الشؤون الثقافية، معهد تونس للترجمة، تونس، ط1، 2007، ص5.

[2]-الرّحلة، ص171.

[3]-الرّحلة، ص99.

[4]-الرحلة، ص155.

[5]-الرّحلة، ص143.

فيه، فيقفون على باب قبته فيضجّون بأقبح بكاء يكون وأوحشه»[1]، وهذا يبعث على التّعجب لدى القارئ المسلم كون هذه الممارسات تخالف العقيدة الإسلامية، ولا تمتّ لها بأيّ صلة.

ومن خلال هذا العرض الّذي قدّمه **ابن فضلان** في نصّه الرّحلي نرى أنّ الطّقوس الّتي تخصّ الموت، وعملية الدّفن من الأمور الّتي شدّت انتباهه، ومنح لها مساحة واسعة للتّعبير، ونستجلي من ذلك أنّ طقوس الموت تختلف من شعب إلى آخر، وصورة الميّت تتعدّد لدى هذه الشّعوب بين التقديس والتّدنيس، وإن كانت معتقداتهم خاطئة، فإنّهم يقدّسون الميّت حسب مكانته الّتي حظي بها في الحياة، فإذا كان حاكما بنوا له بيوتا مرصّعة بالجواهر النّفيسة، وأضفوا عليه طابع القدسية، وإن كان من العبيد فإنّه يُرمى للكلاب تنهش جثّته.

3.2. الآخر والعجيب والغريب:

يذكر **ابن فضـــلان** متفرّقات من حياة الشّـــعوب الّتي زارها، ويُظهر تعجبه واســـتغرابه منها، حيث يقومون بأفعال عجيبة كذكره لبعض عجائب الصقالبة بقوله: «ورأيتهم يتبركون بعواء الكلاب جدّا، ويفرحون به، ويقولون سنة خصب وبركة وسلامة»[2]، مبديا حيرته وتعجبه من هذا التبرّك، فما علاقة نواح الكلاب بالخصـــب والنّماء؟ وكيف يمكن أن يؤثّر العواء على هؤلاء ويجعلهم في حالة من الفرح؟ ولا يوجد تفسير منطقي لهذا الفعل.

وفي سيّاق آخر يذكر عن أهل الصّقالبة أنّه «إذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه، ويتركونه على حالته وجميع من فيه من رجل ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمان ويقولون: " هذا بيت مغضـــوب عليهم"»[3]، دون أن يقدّموا له يد العون، أو يخرجوه من ذلك البيت، كما يذكر حال قبيلة الباشـغرد وأنّ منهم من «يزعم أنّ له اثني عشـر ربا، للشـتاء رب وللصـيف رب، وللمطر رب، وللريح رب، (...) وللموت رب، وللأرض رب، والرب الذي في السماء أكبرهم (...) ورأينا طائفة منهم تعبد الحيّات، وطائفة تعبد السّمك»[4].

وبناء على هذه الممارسـات الّتي نقلها الرحّالة عن هذه الشّـعوب، تتشـكّل جملة من الصـور الّتي تدلّ على قسـاوة هذا الآخر الّتي يمكن اكتشـافها من خلال بعض المواقف الّتي أفصـحت عن بعض المشـاهد الدّينية، والاجتماعية، وكشـفت عن انغلاق ذاتي لهذا الآخر الّذي يقبع في ظلام الجهل، وبقي أسير المعتقدات الخاطئة، والتّفكير غير المنطقي.

4.2. نقد الآخر:

في بعض السّـياقات من النصّ الرّحليّ يعبّر **ابن فضـلان** بلهجة قوية تنمّ عن سـخطه على واقع الحياة لدى بعض الشّـعوب كقوله عن أهل خوارزم واصفًا طريقة كلامهم وطباعهم: «وهم أوحش الناس كلاما وطبعا، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير، وبها قرية على يوم يقال لها (الكردلية) كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع»[5]، وهو يقدّم نقدا لاذعا لأهل هذه القبيلة لشدّة قساوة طباعهم.

---

[1]- الرحلة، ص143، 144.

[2]-الرّحلة، ص127.

[3]-الرّحلة، ص132.

[4]-الرّحلة، ص108، 109.

[5] -الرّحلة، ص82.

ولا يتوقّف عن إبداء رأيه حول بعض القبائل الأخرى كقبيلة الغزيّة بقوله: «فلما قطعنا أفضـــينا إلى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزيّة، وإذا هم بادية لهم بيوت شَـعر، يحلون ويرتحلون (...) وإذا هم في شـقاء، وهم مع ذلك كالحمير الضـالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئا»[1]، كما أشار إلى قبيلة الباشغرد بقوله: «ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يُقال لهم الباشغرد فحَذِرناهم أشـدّ الحذر، وذلك أنّهم شـرّ الأتراك وأقذرهم، وأشـدّهم إقبالا على القتل (...) وهو يحلِّقون لحاهم ويأكلون القمل»[2]، وهذا لشـدّه قساوتهم، وطباعهم الغليظة.

ولم يأت هذا النّقد للآخر اعتباطا بل صـدر من الرحّالة بعد ما احتكّ بأهل هذه القبائل، وشـاهد ما يشـيع بينهم من مظاهر لا إنسـانية كالقتل، والحرية المطلقة إذ لا دين ولا عقل يحكمهم، وقد قدّم نقده معتمدا التّشـبيه والوصـف، وقد سـاعد ذلك على تقريب الصّورة للقارئ، وجعله يدرك مدى السّلبية الّتي تطبع شخصية هؤلاء، ومستعملا ألفاظا قوية تدلّ على نفور **ابن فضلان** منهم، وانتقاد الوضع الّذي يعيشونه فتبنّى موقف الرّفض لواقع الحياة في هذه القبائل.

اعتمد الرّحالة "ابن فضلان" في رحلته على المشاهدة والانخراط في حياة الشّعوب وقد، نقل كلّ مشاهداته معتمدا الوصف ممزوجا بالسّرد؛ بغية توليد الدّلالات وإنتاج المعاني الّتي تعبّر بدقة عن الموصوف، ونراه يلم بجميع الجوانب المادّية والمعنوية للمجموعات البشريّة، بالإضـافة إلى تصـوير العادات والتّقاليد، والمباني، وسـياسـة الحكم، وطقوس الموت والزّواج، وكلّ ما يحيط بالإنسـان من ظواهر ثقافيّة، واجتماعيّة، وسـياسـية، واقتصـاديّة، نقلا نمط المعيشـة بكلّ تفاصـيله، كما نراه يلجأ إلى أسـلوب المقارنة بين بيئته وبيئة الآخر، ويقدّم الفروقات بين البيئتين، أضـف إلى إبداء رأيه في بعض المواضـع، هذا المزج بين أسـلوب السّـرد والوصـف يقدّم صـورة واضـحة للآخر، «فتحضر بذلك الموصوفات في النصّ تبعا لحركة تنقله واتّجاهه، فلا يوصف مكان ولا شخصية مثلا إلاّ عندما يقعان تحت طائلة حاسّة من حواسه»[3]، ناقلا بذلك صورة صادقة لكلّ ما يقع نظره عليه.

فالوصف الدّقيق المعتمد في الرّحلة أدّى دورا مهما في إبراز صورة الآخر، وساهم في طبع الرّحلة بطابع المصداقية كونه يدعم كلامه بالشّواهد، ويتعمد ذكر المكان والتّاريخ والسّاعة، ويقدّم المعلومات الكاملة، وهذا يساعد على إشراك القارئ «في معايشة الحدث كما لو كان حاضـرا على مسـرح الأحداث لحظة وقوعه»[4]، من ذلك قوله في حديثه عن البجناك [وهم قبيلة من الأتراك]: «ثم صـرنا بعد ذلك إلى البجناك، وإذا هم نزول على ماء شبيه بالبحر غير جارٍ، وإذا هم سمرٌ شديدو السّمرة، وإذا هم محلقو اللحى، فقراء، خلاف الغزيّة»[5].

هذه الآليات المعتمدة في نقل صورة الآخر ساهمت في إثراء المشهد السّرديّ، وقدّمت مشاهد حيّة له، نكتشف من خلالها طبيعة حياة الشّعوب، ونمط معيشتهم، ومنه نقول إنّ هذه الرّحلة فتحت مجالا واسعا للمعارف المتعدّدة، والثّقافات المتنوعة، ويمكن أن نعتمدها كمصـدر مهم لدراسـة الآخر، لا سـيّما وأنّ الحديث فيه لا يقتصـر على مجال ضـيّق، بل شملت مسـاحة واسـعة من البلدان، وتطرّقت

---

[1] -الرحلة، ص91.

[2] – الرحلة، ص107، 108.

[3] -محمد نجيب العمامي، الوصف في النصّ السردي بين النظرية والإجراء، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2010، ص93.

[4] -المرجع نفسه، ص93، 94.

[5] -الرحلة، ص106.

لمجالات الحياة المختلفة، وألّمت بتفاصـيلها الدّقيقة، لأنّ الرّحلة في عمومها هي «من أوسـع أبواب المعرفة والثّقافة الإنسـانيّة لكشـف المجهول والوصـول إلى الغاية ومعرفة الحقيقة، وإمعان النّظر في الآثار والطّبيعة، فقد فطر الله سبحانه وتعالى الإنسـان على البحث المستمر عن الحقيقة، واستقصاء مداركها، والتّعرف إلى هذه الدّنيا، ومظاهر الحياة فيها»[1].

إنّ رحلة "رحلة ابن فضـلان إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّـقالبة" زاخرة بالمعلومات القيّمة، والمعارف الواسـعة، ومن خلالها يمكن للقارئ معرفة الكثير من المظاهر الحياتيّة الّتي تعيشـها مختلف الشّـعوب على اختلاف دياناتها، وعقائدها، وثقافاتها، وندرك مدى الاختلاف بين الشّـعوب، ومن خلالها تجلّت صـورة الآخر الغريب، وتعدّدت هذه الصّـورة بتعدّد المواقع الجغرافيّة، والظّواهر الثّقافيّة، والمعتقدات الدّينيّة، وغيرها من المظاهر المختلفة الّتي تتعلق بالحياة الإنسانيّة.

● خاتمة:

-لقد ساهم الاحتكاك المباشر بين **ابن فضلان** ومختلف الشّعوب الّتي زارها في تشكيل صورة الآخر الّتي تعدّدت وتنوّعت بتنوع المناطق، واختلاف طريقة تفكير هذه الشّعوب، وأسلوب حياتهم، وقد تمّ استنباط واستجلاء هذه الصّورة بناء على كلّ ما قدّمه من مظاهر تخصّ جوانب الحياة الإنسـانية، فلم يقتصـر على جانب دون آخر، بل ألمّ بكلّ من الجانب الدّيني، والاجتماعيّ، والثّقافي، والسّياسـيّ وكلّ من هذه الجوانب أفصح عن ظواهر ومعاملات، وممارسات تصف هذا الآخر، وتعرّف به، وبعاداته، ومظاهره الثّقافيّة.

-برزت شخصية الحاكم من خلال التّقديم كشخصية متسلّطة سلبيّة، تضع لنفسها مكانة رفيعة، وبرزت في موضع آخر كشخصية إيجابية تدافع على الحقّ، ومتواضعة في تعاملها مع الآخرين.

-احتلّ موضـوع الموت مكانة بارزة في نصّ الرّحلة، وكشـف عن ممارسـات وطقوس عديدة تُقام لدفن الميّت الّذي يُنظر إليه نظرة تعظيم وتقديس إذا كان من الحكّام، في حين لا يجد العبيد حقّهم في الدّفن بعد موتهم، وهذا من المفارقات العجيبة الّتي تحدث عند هذه الشّعوب.

-تجلّت الصـورة السـلبيّة للآخر بوضـوح من خلال النّقد اللّاذع الّذي قدّمه **ابن فضـلان** لبعض شـعوب القبائل الّتي تعيش في جهل وانغلاق ما دفعه إلى النفور والحذر منها.

-والرّحلة ثريّة جدّا بالحديث عن الشّعوب الأخرى، وما زادها ثراء الإلمام الواسع بجوانب كثيرة من الحياة الإنسانيّة، وهذا ناتج عن انفتاح الرحالة على هذه الشّعوب، وتواصله المباشر معهم، ورغبته في معرفتهم عن قرب، وبالفعل فتحت لنا الرحلة آفاقا نتعرّف من خلالها على الآخر، ونكتشف طريقة تفكيره، وأسلوب حياته.

---

[1] -حشلافي لخضر، روباش جميلة، الآخر في الرحلات المغربيّة، م.س، ص5